

البحث عن الذات في غواية الآخر في رواية سطوح أرسول لمحمد ديب

The search for self in the seduction of the other in Mohammed Dib's
novel (The Rooftops of Arsoul)

محمد زرمان

ماجدة نعيو*

جامعة باتنة-1

جامعة باتنة-1- الجزائر

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

mohamed.zermane@univ-batna.dzmadjda.naiou@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-11-30

تاريخ الإرسال: 2025-11-03

ملخص

حفلت الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي منذ نشأتها بإلقاء الضوء على علاقة الأنا بالآخر الأجنبي؛ إذ أضى موضوع الذات وعلاقتها بالآخر تيمة حاضرة في كل محفل أدبي ونقدي حين غدت هذه العلاقة أمرا ملموسا في الرواية الجزائرية بالتعبير الفرنسي بالنظر إلى ما يطرحه هذا الأدب من مواضيع تتعلق بالآخر في صورته الفردية والجمعية، فأصبح الخطاب الأدبي باللغة الفرنسية - بشكل خاص - مسرعا لرؤى متقاطعة تخص الآخر (الغير)، وما عرفته هذه العلاقة من رفض واستلاب. ولعل من الأهمية البحث في علاقة الذات والآخر في المتون الروائية بالنظر إلى ما تكشفه هذه الأخيرة من تسليط الضوء على الآخر ونقده نقدا موضوعيا والوقوف عند المحطات التاريخية والحضارية بعيدا عن أي عصبية أو أفكار مسبقة.

ولعل محمد ديب من أبرز كتاب هذا الاتجاه الإبداعي الذين تطرقوا إلى هذه العلاقة بين الذات والغير الأجنبي منذ بداياته، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مساءلة الذات ونقدها وبيان فتنها بالآخر الأجنبي في رواية سطوح أرسول لمحمد ديب.

الكلمات المفتاحية: ذات؛ آخر؛ هوية؛ رواية.

Abstract:

Since its inception, the Algerian novel written in French has been replete with light on the relationship of the self to the foreign other. The subject of the self and its relationship to the other has become a theme present in every literary and critical forum, as this relationship has become a tangible matter in the Algerian novel in French expression, given what this literature presents of topics related to the other in its individual and collective form. Thus, literary discourse in the French language - in particular - has become a stage for intersecting visions concerning the other (the

*-المؤلف المراسل

stranger). This relationship has been marked by rejection and alienation. It is perhaps crucial to examine the relationship between self and other in novelistic texts, given their tendency to highlight and objectively critique the other, and to explore historical and cultural junctures without bias or preconceived notions. Mohammed Dib is perhaps one of the most prominent writers of this creative movement who addressed this relationship between the self and the foreign other from its very beginnings. Therefore, this study aims to uncover the self's questioning and critique, and its fascination with the foreign other, in Mohammed Dib's novel *The Rooftops of

Keywords: Self ; Other ; Identity; Novel.

مقدمة:

يمثل الأدب أحد أهم الفضاءات التعبيرية التي يلجأ إليها الإنسان من أجل فهم ذاته وإعادة تأويل علاقته بالعالم، فمن خلال صيغته الرمزية وقدرته على تجسيد التجربة الإنسانية في بعدها النفسي والوجودي، يتيح الأدب مقاربة دقيقة لخلجات النفس البشرية وما يعترها من اضطرابات وصراعات داخلية وخارجية، وفي هذا الإطار، شكّلت الرواية بوصفها جنساً سردياً يتمتع بسعة القول وقدرته على استيعاب تعدّد الأصوات والرؤى مرجعاً مركزياً لدراسة التوتر المستمر بين الذات ومحيطها العام؛ إذ يُمكن الطابع البوليفوني للرواية، وفق منظور ميخائيل باختين من فتح المجال لتجاوز وجهات النظر وتعارضها، ومن ثم إبراز إشكالية الأنا والآخر في سياقاتها المتحركة والمعقدة.

وقد عالجت الرواية هذه الإشكالية عبر مقاربات متباينة، فسَلّطت الضوء على طبيعة العلاقة بالآخر التي تتأرجح بين الانهيار والاستلاب، وبين الرفض والقطيعة، وصولاً إلى لحظات التمرد التي تعلن فيها الذات رغبتها في إعادة تعريف وجودها. ولا يُنظر إلى الآخر في هذا السياق بوصفه مجرد عنصر خارجي، بل بوصفه مرآة تعكس هشاشة الأنا وقوتها في آنٍ معاً، وهو ما يجعل العلاقة به محفّزاً إما لإعادة بناء الهوية أو لتهديدها، تبعاً للظروف التاريخية والثقافية للشخصيات.

وفي السياق الجزائري، اكتسبت العلاقة بالآخر (الغربي تحديداً) أبعاداً إضافية نتيجة الإرث الاستعماري وتجارب الهجرة والاعتراب، وقد انخرطت الرواية الجزائرية المكتوبة باللسان الفرنسي في هذا النقاش بعمق، إذ وجدت في اللغة الفرنسية فضاءً ملتبساً يجمع بين الإغراء والمقاومة، وبين الاستيعاب والرفض. ومن خلال هذه الازدواجية، تمكنت الرواية من كشف ما يعترى الذات الجزائرية من تمزّقات وهي تنتقل بين موروثها الثقافي الأصيل ومتطلبات فضاءات جديدة قد تستوعبها أو تُعيد تشكيلها وفق مقاييسها الخاصة.

إنّ العديد من النصوص الروائية الجزائرية التي كُتبت بالفرنسية قدّمت نماذج سردية تتجلى فيها أزمات الهوية وتصدّعات الانتماء، من خلال شخصيات مغتربة أو مهمّشة تجد نفسها في حالة تفاوض دائم بين جذورها الأولى وواقع جديد تحاول التكيف معه أو رفضه. وبذلك تحوّلت الرواية إلى مختبر سردي تُفكّك عبره ديناميات الهيمنة والمقاومة، ويُعاد من خلاله تشكيل خطاب الآخر وتمثلاته، في مقابل إعادة صياغة الذات لنفسها ضمن رؤية سردية تسعى إلى الموازنة بين الذاكرة الجماعية والتطلعات الفردية.

وانطلاقاً من هذا التصرّو، تتيح دراسة تمثّلات العلاقة بين الأنا والآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية فرصة لإعادة النظر في مفاهيم الهوية والاختلاف والاعتراب. كما توقّر مدخلاً لفهم التحولات التي شهدتها المجتمع الجزائري في علاقته بذاته وبالعالم، من خلال نصوص أدبية تُعبّر عن قلق الهوية، وارتباك الانتماء، وطموح الفرد نحو فضاءات أكثر رحابة؛ ومن ثمّ تبدو هذه الرواية مجالاً مناسباً لإعادة قراءة الإرث الاستعماري وما ترتب عنه من توتر في تموضع الذات داخل منظومة ثقافية ذات مرجعين مختلفين.

وعلى ضوء ما سبق، يتأكد أنّ مقارنة علاقة الذات بالآخر في النص الروائي الجزائري المكتوب بالفرنسية لا تقتصر على تحليل بنيات السرد فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى مساءلة الخلفيات التاريخية والأنثروبولوجية التي شكّلت هذا الوعي المزدوج، وبذلك تُسهم هذه الدراسة في فهم أعمق للبنية السردية والهوية الثقافية، عبر تحليل نموذج أدبي يعكس في تجلياته المتعددة رهانات الذات في بحثها المستمر عن الاعتراف والتجذّر والمعنى. لذلك تروم هذه الدراسة تسليط الضوء على علاقة الأنا والآخر في كتابات محمد ديب، وبخاصة في روايته الشمالية الأولى (سطوح أرسول 1985)، فكيف كانت نظرة الذات لنفسها وللآخر؟ كيف هي صورة الآخر في هذه الرواية؟ كيف استلهمت الذات موروّثاتها الثقافية والحضارية في علاقتها بالآخر؟ ما هو موقف الذات من صورتها الفردية والجمعية؟ لم افتتنت الذات بالآخر الأجنبي؟

من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها علينا الوقوف أولاً على العتبات المصطلحية لبعض المفاهيم النقدية الواردة في هذا البحث.

1- الجهاز المفاهيمي للمصطلحين:

1-1- تعريف الذات:

أ- لغة:

وردت لفظة الذات في لسان العرب على النحو التالي: "ذات الشيء: حقيقته وخاصته"¹ في حين أن الزبيدي في تاج العروس يقرن هذا اللفظ بالسريرة "عرف من ذات نفسه، كأنه يعني سريرته المضمرة"²

وبناء عليه فإن الذات تشير إلى جوهر الشيء ومقوماته المضمرة الفردية وما تعلق به من خواص تميزه عن غيره. فإذا كان هذا هو المفهوم اللغوي في أي مدى يتطابق مع المفهوم الاصطلاحي؟

ب- اصطلاحاً:

إن القبض على الحدود المفاهيمية والاصطلاحية للذات عصي على الطرح والتعريف نظراً لولوج المصطلح ميادين علم الفلسفة والنفس والاجتماع والأدب وغيرها من العلوم والمعارف.

ورغم هذه الصعوبات التعريفية والتداخل بين العلوم إلا أن الذات تشير إلى "مجموعة الآراء والمعتقدات التي يكوّنها الفرد عن ذاته"³، وبناء على هذا فالذات مركبات نفسية وفكرية يكونها الفرد أو الجماعة عن نفسه مقابل ذوات أخرى بناء على عوامل الاختلاف، فهي "تكوين اجتماعي ينشأ في ظروف اجتماعية؛ حيث توجد اتصالات اجتماعية، ومن الممكن أن تنشأ للإنسان ذوات عدّة؛ كل منها مجموعة مكتسبة من مختلف الجماعات الاجتماعية"⁴، ويمكننا أن نستنتج من التعريف السابق أن الذات متغيرة بحسب الوسط الخارجي الذي تعينه، فتتغير بتغيره وتكتشف خصائصها وسط هذه المتغيرات.

¹ - جمال الدين ابن منظور، (2006). لسان العرب، ط/3، دار صادر، بيروت، لبنان.

² - الزبيدي، (1970)، ط/4، تاج العروس، دار الجيل، بيروت، لبنان.

³ - إسماعيل تامر سفر، (2001). الذات والهوية في سيكولوجية الشخصية، دإط، وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا. ص 64.

⁴ - إبراهيم أحمد أبو زيد، (1987)، سيكولوجية الذات والتوافق، ط/1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ص 72.

كما تعرّف الذات بكونها "الأساليب التي يستجيب بها الفرد لنفسه، والتفاعلات بين الذات والآخر، في مجموعة من العمليات النفسية"¹ إذن لا غنى للذات عن الآخر، فبضدّها تتميز الأشياء، ونستطيع القول إن الآخر مرآة الذات العاكسة لاختلافها وتميزها.

فحينما تلتقي الذات بالآخر تدرك ذلك الاختلاف الحاصل بينهما، إذ "تشرع في تحديد من يشابهها ومن يختلف عنها، وتقوم تلك العملية على الاختزال من خلال التركيز على بعض السمات، ومن ثمّ تعميمها"²، وبعد ذلك تأتي مرحلة الغريلة -إن صح التعبير- فتبحث الذات عمن يشبهها أو يخالفها، فعندما تكتمل صورة الذات حول نفسها تبحث عن معيار تحدد من خلاله "من ينتمي إلى مجتمع الذات ومن لا ينتمي إليه، ووعي الذات لخصوصيتها يفضي إلى وعيها بالاختلاف عن الآخر"³.

فتعريف الذات- إذن- لا ينفك عن تعريف الآخر، فهما كالمرآة يعكس أحدهما صورة غيره، والآخر في أوضح صورته مثل الذات ونقيضها، وهو طرف مهم لتدرك الذات نفسها.

2-1- تعريف الآخر:

أ- لغة:

الآخر في اللغة بفتح الخاء "أحد الشئين وهو اسم على أفعال، والأنثى: أخرى، والآخر بمعنى غير، كقولك: رجل آخر وثوب آخر"⁴، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى (غير) في قوله تعالى "فأخران يقومان مقامهما" المائدة الآية 107، قال الفراء معناه أو أخران من غير دينكم"⁵ إذن فالآخر يحيل إلى الكيان المستقل والمختلف - بشكل عام- عن الذات، فهل يتطابق هذا المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي للكلمة؟

ب- اصطلاحاً:

1 - عباس يوسف الحداد، *الأنا في الشعر الصوفي ابن الفياض أنموذجاً*، مرجع سابق، ص 34.

2 - علاء عبد الهادي. *شعرية الهوية* (2001)، عالم الفكر، وزارة الإعلام، السوية، مج 12، (1ع)، 2001، ص 284.

3 - سعد فهد الدويخ، (2009)، *صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي*. ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ص 7.

4 - ابن منظور، *لسان العرب*، مصدر سابق. مادة (ذات)

5 - ابن سيده، (2000)، *المحكم والمحيط الأعظم*، ط 13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان..

يعدّ الآخر مصطلحا واسع الدلالة، فهو من منظور علم النفس "مجموعة من السلوكيات الاجتماعية والنفسية والفكرية التي ينسبها فرد؛ ذات أو جماعة ما إلى الآخرين، مما يحيل إلى أن الآخر في مجال العالم للهوية"¹ ويُعرّف الآخر أو الآخرون: "بأنهم فرد أو جماعة، لا يمكن تحديدهم، إلا في ضوء مرجع هو الأنأ، فإذا حددنا هوية الأنأ، فإن الآخر فردا كان أم جماعة، يحكم علاقته بالأنأ، عامل التمايز، وهو تمايز إطاره الهوية والإدراء في أحيان أخرى"².

فالآخر يمثل ذلك المختلف ثقافيا واجتماعيا وشكليا...وبفضله يمكن أن ننظر إلى ذاتنا ككيان متمايز ومختلف، إذ أن الآخر يمثل ذلك الكيان المختلف ثقافيا واجتماعيا وشكليا، أي ذلك الذي لا يشبهنا في اللغة والعادات والرؤية إلى العالم. غير أن هذا الاختلاف لا يُعدّ تهديداً لوجود الذات، بل شرطاً لإدراكها لذاتها بوصفها كياناً متمائزاً. فالآخر "حال في المجال الوجودي للهوية، إنه يمثل، وبشكل مفارق موضوع إغراء ومنبعاً للحيطه والحذر"³ وبناء عليه، لا يتحقق للذات كينوتها ووجودها ولا يكتمل إحساسها بجوهرها دون الآخر، ذلك أنه من "الشروط الأولية لبناء وحدة بسيكولوجية اجتماعية هو إنشاء (صورة الآخر)، بفضلهما تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين (النحن)و(الهم) وإلى تثمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك"⁴.

فالعلاقة بالآخر رفيق للذات في كل مراحل حياتها، تجمع بينهما علاقة تأثر وتأثير ووجود أيضاً" فحيثما وجدت الذات هناك آخر في علاقة ماهية وتشكل ووجود"⁵، فالآخر يدخل في بنية الذات فلا حديث عن نقاء الذات من الآخر "لأن الآخر الغريب قد دخل مسبقا جوهر بنيتها، وهذا الوضع يجعل الوعي الذاتي نفسه مخترقا من الخارج"⁶ حيث لم تعد الذات كياناً

1 - سعد فهد الدويخ، صورة الآخر في الشعر العربي، مرجع سابق، ص 11.

2 - مصلاح النجار، (2008)، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، د/ط، المطبعة الأهلية، الأردن، ص 21.

3- المرجع نفسه، ص 11.

4 - الطاهر لبيب، (1999)، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، د/ط، مركز دراسات الوحدة العربية، الأردن، ص 157.

5 - آية عبد الله بيك، (2018)،جماليات الذات والآخر في ثلاثية الرفاعي، د/ط، كلية الآداب جامعة اليرموك، الأردن، ص 22.

6 - سعد البازعي، (2002)، دليل الناقد الأدب، د/ط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 24.

مغلّقاً أو مكتفياً بذاته، بل أصبحت منفتحة على الآخر إلى حدّ أن هذا الآخر تغلغل في بنيتها العميقة، أي في طريقة تفكيرها وتمثّلها لوجودها وهويتها. فالآخر الغريب لم يعد مجرد كيان خارجي يواجه الذات من خارجها، بل صار جزءاً من تكوينها الداخلي، مما يعني أن الوعي الذاتي فقد نقاءه الأصلي وأصبح مشروطاً بنظرة الآخر وتأثيره.

وتتنوع العلاقات التي تجمع الذات بالآخر بالشكل الفردي أو الجمعي، فإذا كان الآخر في مرحلة ما صديقاً فإنه "قد يصبح عدوّاً إذا اختلف الشرط التاريخي والسياسي الذي يحكم علاقة الذات به، وقد أطلق بعض الباحثين مصطلح الهوس (mania) على انهيار الذات بالآخر، كما وسموا العلاقة القائمة على الخوف منه ب (phobia)، وموقف الفهم والحوار ب (philia)، وموقف الوحدة ب (unity) ¹، كل هذه العلاقات السابقة كان لها صداها الواضح داخل العوالم السردية، التي وجدت في هذا الاختلاف مادة خصبة للبناء الفني والتشكيل الروائي.

2- الذات والآخر في عوالم السرد:

أخذت العلاقة بين الذات والآخر مساحة كبيرة داخل المنجزات الأدبية وبخاصة السردية منها، على اعتبار أن السرد مبني على وجود شخصيات متصارعة، لكل منها خصوصية، إذ عمل الروائيون على استغلال هذا الصراع الداخلي والخارجي ضمن منجزاتهم السردية ذلك أن "العلاقة بين الأنا والآخر هي الخيط الناسج للنص الإبداعي" ² ولقد أذكت طبيعة هذه العلاقة الإبداع لدى أهل السرد حينما راحوا يصورون ما يطبعها من علاقات معقدة تنسم بالتفاهم أحياناً والنفور والرفض في أحيان أخرى، ذلك أن الكتابة هي "تطلّع إلى فهم الذات والمجتمع، واستيعاب المحيط والزمن، عبر السعي إلى تمثيل "الصلات" و"الحدود" و"القيم المشتركة"، ومولّدات "الصراع" و"التواؤم" مع "الكيانات الغريبة" ³، فهذه العلاقة هي في الحقيقة جوهر الحياة الإنسانية، فالأحاسيس والمواقف التي تحفل بها الأعمال الأدبية الخالدة تبقى متعلقة في العمق بجذلية الذاتي والغيري، فلا وجود لأدب في عالم غير إنساني.

¹ - هنري باجو، (1997)، *الأدب المقارن والأدب العام*، دإط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ص 19.

² - الطاهر لبّيب، *صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه*، مرجع سابق، ص 38.

³ - شرف الدين ماجدولين، (2012)، *الفتنة والآخر*، ط/1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص 25.

قضية أخرى لا يمكن إغفالها، تتمثل في علاقة الذات بالآخر في فضاءاته وأمكنته، ذلك أنّ الذات تكتشف الآخر خاصة في الفضاءات الغريبة حينما "تنتقل الذات من التمرکز إلى الانفتاح، ومن حالة الرفض والاستبعاد هنا إلى تمكين القبول والتعايش هناك، وضعية من شأنها أن تنتج من الناحية الفنية تساندا بنيويا وداليا مشتركا بين المنجزات الأدبية لكتاب المنافي الذين كابدوا تلك النقلة المكانية والحضارية ليؤسسوا لونا من الكتابة يشغف بطرح تخيلي غرائبي لأسئلة وأزمات وجودية أكثر"¹ فالعلاقة مع الآخر والاحتكاك به عن قرب يولد في النفس أو الذات مشاعر جديدة، فالقرب يحقق للذات معاينة هذا الآخر والتعرف عليه والبحث عن جوانبه المضيئة والمساحات المشتركة التي تربط بينهما دون تحيز أو تعصب، وهو ما ستحاول هذه الورقة البحثية التطرق إليه في رواية سطوح أرسول لمحمد ديب.

1-2- البحث عن الذات في غواية الآخر في رواية سطوح أرسول لمحمد ديب:

إذا تكلمنا عن الآخر (غير الأجنبي) فذلك يحيل إلى كل خصوصياته المادية واللامادية، من أفكار وثقافة وبنية تحتية وفوقية، التي من شأن الذات (الأنا) أن تستقبلها وترصدها وتتلقاها لتنعكس على صورتها الداخلية والخارجية. فتجعلها تقف موقف النقد من نفسها ومن الآخر (الرفض أو الاستلاب)، وذلك ما سنبحث عنه في شخصية (عايد) الذي أتى من دولة شرقية إلى عالم غربي مختلف كل الاختلاف عن ثقافته. مما جعله يتفاعل مع هذه الثقافة الأجنبية وينهر بمكوناتها، وبالأخص مدينة (جرفير). هذا الاستلاب مرده إلى إحساسه بالاغتراب والتهميش الذي لقيه من قبل سلطات بلده التي نفتته إلى (جرفير) بطريقة غير مباشرة. يوجّه (عايد) النقد لحكومة بلده التي تخلّت عنه وهو الذي ضحى بنفسه في سبيلها وغامر هذه المغامرة من أجل بلده "أنا جزء من الحكومة، برغم المكانة والوظيفة التي أحتلها. فلا يمكن في هذه الحالة أن أعامل كما يعامل شخص عادي،... فلولا أن الجرائد تخصص من حين لآخر سطرين لبلدي لاعتقدت انه توقف عن الوجود"²، فقد بلغ اليأس من عايد مبلغه، ووجد نفسه وحيدا لا يسمع صوتا أو صدى لهذه الحكومة، بل إن الشك قد بدأ يدبّ في نفسه في أن هذه المهمة التي أوكلت إليه لم تكن بريئة المقصد، لكننا أرادوا التخلص منه عبر تكليفه بها.

¹ - الأمين بحري (2014)، أدب المنفى بين انزياحات الهوية وبدائل الكتابة التفكيكية، جريدة النصر

الجزائرية، ع15186، ص14.

² - محمد ديب، سطوح أرسول، تر: محمد ساري، دار الشهاب، الجزائر، د1ط، 2011، ص 112، 113.

يقول (عايد): " لا نطلب إعادتنا إلى الوطن، إن السلطة المركزية هي التي تربطنا وتفكّ عقدنا في اللحظة التي تراها مناسبة، وحسب نواميس هي وحدها تعرف إجراءاتها التي تبقيها سرية دوماً، مع أنني طلبت إعادتي إلى البلد، بعد أن بعثت إليهم جميع التقارير الممكنة حول جميع الموضوعات ذات الأهمية، طلبت حقي في العودة، بالفعل لا أعرف أي شخص أستعين به، لا أعرف طريقة أخبر بها الدوائر العليا، كما أرغب في رؤية أرسول، ليرجعوا لي مدينتي، لأتمكن من لقاء وجوه تكلمني، وجوه أستطيع السفر عبر تقاسيمها"¹ إنه بوجه جام غضبه في وجه هذا البلد الذي يتخلي عن مواطنيه ويتركهم للمهالك في فضاءات الغير دون أي سند مادي أو معنوي.

يصرّح (عايد): "لم يحظ تقرير واحد من بين العدد الهائل من التقارير التي بعثتها بإجابة؛ سواء بالرفض أو القبول، لا توجيهات ولا نصائح، كما لو أن دهاليز الجحيم ابتلعتهما... المسافة طويلة... أكيد أن رسائلي وصلت إلى مقصدها، ولكن هل سقطت بين أيدي نزهاء"² فنوايا الجهات الرسمية - حسب - غير صادقة، لذلك يلقي البطل باللوم على سلطات بلده ويتهم بعض مسؤوليها بعدم المسؤولية والنزاهة.

وعلى الرغم من هذا الشعور بالتهميش إلا أن عايد وجد في (جرفير) السلوى والبلسم الذي يشفي جروحه، فقد جُبلت النفس على حبّ من يحبّها ويولمها الاهتمام والرعاية، وهو ما افتتن به البطل في هذه البلاد الغريبة، فمن بين العادات التي لفتت انتباه عايد احترام الضيف الذي يعدّ واجباً مقدساً عند أهل (جرفير) الذين لا يتأخرون عن حسن الضيافة بكل حب وتواضع؛ حيث يتفانون في خدمة الآخرين وتسهيل أمورهم بل وإسعادهم، ويتساوى في ذلك المواطن وعابر السبيل على قدم السواء " هكذا هو حسن الضيافة، إنه عام، ويرتبط بجوٍّ من الصرامة السائدة عند سكانها الأكثر تواضعاً، وهذا يمسّ وتراً حسّاساً بداخل كل منّا، وتر حساس فعلاً، وقد لاحظت عند وصولي كيف يجب كل واحد تسهيل حياة الغير. إن كل ما من شأنه أن يكون مفيداً لكم، أن يساعدكم على راحة أكثر، تجدونه يتحقق بأريحية لا مثيل لها؛

¹ - المصدر نفسه، ص 83.

² - محمد ديب، سطوح أرسول، ص 113.

ليس فقط سعادة المواطن: سعادة البشر عموماً، تعد مهمة مقدّسة لدى سكان يشملهم الإجماع في هذه الإجراءات"¹

جغرافير واحدة من هذه المدن التي سيطرت على عايد في سطوح أرسول وجعلته يعيش الاستلاب، يقول (عايد) " المدينة الحديثة تملك أيضاً مغرباتها، إلى حدّ ترككم مذهولين من المفاجأة، حتى وإن تعلّق الأمر فقط بهذه العمارات، هذه المجموعات الواقعة في أحياء متعدّدة، التي يسحرني منظرها عند كل رؤية، حقاً تملك أناقة وجرأة التجديد، الرائعة هنا، مثيرة للذهول، لا أندش إن جاء رجال الفن والمعماريون والمهندسون، أقصد الأجانب منهم، لأنهم سيجدون مادة ثرية للدرس بل للتفكير أيضاً، أقولها دون تردد، إن هذه الطريقة الذكية في مزج القديم مع الحديث لدى مدينة (جغرافير) تمنح لها صفة المعجزة، معجزة أليفة إن شئتم، إن أمكن لهذين اللفظين أن يجتمعا معاً، أحياناً، وأنا أتجول عبر شوارعها، ينتابني إحساس كما لو أنني أعيش واحداً من تلك الأحلام التي تذكرني بأماكن لم نزرها أبداً قبل ذلك"² كما لفت انتباه البطل الهدوء الذي يطبع هذه المدينة؛ إنها مدينة السلام والطمأنينة، وإن شئت قل مدينة الأحلام يقول عايد: " حيث انتهت من الساعات الأولى عند قراءتي للجرائد أنه لا تحدث فيها أية جريمة، ولا أية سرقة، ولا يلحظ أي انشقاق بين سكانها، ولا تهرّ المدينة أية فضيحة من أي نوع كان، كما يحدث في مدن أخرى لا أذكر اسمها. لقد تناسب هذا مع حدسي الأول وأضيف إلى موافقتي. ففكرت 'هنا في هذا المكان ستبحث لنفسك عن إقامة، وربما لمدة طويلة، هنا ستعيش وتشتغل، وتلك البشاشة على وجوه الأطفال. وتلك الابتسامة الرائعة. إنها لمنعة كبيرة أن تشاهد الناس وهم ينصرفون إلى أعمالهم، أن تتجول في وسطها يبدو البقالون أنفسهم على هيئة ضيوف لطفاء عوض فرسان متلفّفين على المتر والميزان"³، فهذه المدينة العجيبة تتسم بالهدوء والسكينة، عكس مدن أخرى -ربما يقصد بلده- كما توفر لزوارها الإقامة والعمل، وسهولة الحياة بشكل عام، والحياة الرغيدة دونما عناء يذكر.

إن إعجاب (عايد) بجغرافير يزداد يوماً بعد يوم، فهي مدينة ساحرة تشدّه إليها عبر الشخصوص والامكنة" هذه المدينة تحاول إغرائني، أضحي كل شيء ممكن... ولا يمكننا أن تسلك

¹ - المصدر نفسه، ص 36، 37.

² محمد ديب، سطوح أرسول، ص 36.

³ - المصدر نفسه، ص 38، 39.

غير هذا المسلك، مع أنني لم أتمكن من تصور الهدف من وراء هذا الإغراء ولا لماذا تجهد نفسك، وتنتشر فتنتها عليّ. ربما تعلّق الأمر بشيء أخطر، شيء غامض، وقاتل.¹، فمن شدة دهشته بهذه المدينة، أصبح يخاف من هذا السحر الذي تلقّيه هذه في نفسه، والتي قد تنسيه مدينته (أرسول)، بل تبدو له كطعم لشيء آخر، أو شرك يخشى الوقوع فيه.

فجرفير ألقت سحرها على (عايد) حين بدأ شعور الانتماء إلى هذا البلد يتسلل إلى نفسه شيئاً فشيئاً "فقدت فجأة مفهوم هويتي الخاصة، فكان كل ما يحيط بي يغربني، كيف قبلت بهذا السفر إلى الجزر بلا أدنى تردّد، استجابة لدعوة بسيطة جاءتني من مجهول"²، إذ راح يفقد بعضاً من هويته بمرور الأيام والشهور بالنظر إلى إغراء هذه المدينة وطيبة أهلها التي جعلته يفتن بها، ويعتبرها مدينة الحلم.

فجرفير مدينة ليست كبقية المدن الأخرى حسب البطل (عايد)، بعيدة عن الزيف والمغالطات الموجودة في باقي بقاع العالم "خارج هذا المكان لا أحد يعرف حقيقتها، ولا سعادة العيش في هذه الحياة. على مرّ الأيام، اقتنعت بالأمر شيئاً فشيئاً، وسأبقى كذلك في كل مكان يبدو الوجود المليء بالزيف والعنى، وعادياً هم الناس المنخدعون الذي يعيشونه، في أي مكان باستثناء جرفير"³، فقد وجد البطل فيها ما لم يجده في سواها من مدن، ولعلّ هذا ما يسلي وحشته واغترابه عن أهله ووطنه، لقد وجد البديل المعنوي، والإحساس بالانتماء والهدوء والسلام. إنه يختصرها في كلمة واحدة "عظيمة، هي الكلمة اللائقة بجرفير"⁴

ومما زاد من إعجابه بهذه المدينة تلك الروح الإنسانية- إن صح القول- التي تطبع أهل جرفير الذين يحرصون على بث السعادة فيما بينهم "يوجد من أوكلت إليهم مهمة ضمان سعادة أمثالهم، وتوفيرهم لهم حياة ليس فيها شقاء ولا ضجر، حياة تصبح مثلاً يحتذى به، ويمكن أن يكون هذا الشخص هو أنا، أنت، أو أي شخص آخر"⁵، فجرفير مدينة الحلم تشبه كثيراً تلك المدن التي رسمها أهل اليوتوبيات عبر مراحل التاريخ الإنساني بداية بأفلاطون ومن لحقه من يوتوبيات ومدن فاضلة كيوتوبيا مور والقدّيس أوغسطين...

¹ - المصدر نفسه، ص112.

² - محمد ديب، سطوح أرسول، ص132.

³ - المصدر نفسه، ص37.

⁴ - المصدر نفسه، ص32.

⁵ - المصدر نفسه، ص131.

يقول عايد: "وفرة المواد الغذائية ومواد أخرى بلا حساب: من هذه الخيرات التي لا نراها إلا مقطرة ونادرة تحت سماوات أخرى، فيبدو أن الاحتياطات في جرفير لا ينفد معينها، وهي وعد بعهد ذهبي لا تتحدث عنه الكتب إلا في الزمان الماضي"¹؛ فالعيش الكريم ظلّ مطلباً لإنسانيا عبر العصور فإذا أَمِنَ الإنسان المأوى والمأكل والأمان فذلك منتهى الاستقرار الذي ظلّت تبحث عنه الذات الإنسانية .

شيء آخر يصيب البطل وهو الذهول من جمال الأمكنة وهندستها التي أصابته بالاستلاب والدهشة والروعة، إذ يعجب بذلك التناسق والنظام الذي يلقمها " تستحق هذه الساحة أن أقول عنها كلمتين: رائعة، نعم كم هي رائعة، بشكلها المربع، أتذكر وأبعادها المهيبة بلا إفراط، مخارجها التي لا تقع إلا في الزوايا، تحت أروقة، خافية عن الأنظار، وقبل كل هذا بذلك التماثل والنبل بفضل تلك الأروقة المقنطرة والأعمدة التي تحيط نفسها بها. بمجرد أن تطأ عينك بساطها، ينتابك زهوٌ يغير حواسك ولا تعرف أي الأشياء تترك إعجابك ينساق خلفها، أتلك التفاصيل الدقيقة المكتملة أو ذلك الانسجام المعيب للكل، سيدوخك تتابع الموتيفات المزينة المتماثلة في جميع الأمكنة... ستقع في جنون وحبّ هذه الروعة العجيبة قبل حتى أن تعدّ جميع جمالياتها، أقع دوماً في مثل هذه الحالة الشعورية المذهلة كلما مررت بها."²

كما نلاحظ الاستلاب عند عايد الذي شعر بالإعجاب الشديد بمدينة جرفير والانهار بها، "أعيش في حيي المنتمي إلى جرفير العتيقة، المحاط ببيوت من هذا النوع، وفندي واحد منها"³، من خلال استخدامه لياء المتكلم الدالة على الملكية (حيي، فندي) فعائد يتماهى مع الآخر ويشعر بوجوده معه كما لم يشعر به من قبل.

يتعرّف عايد في هذا البلد الأجنبي على امرأة تدعى (روسيا)، فيحبها ويتعلق بها لتنسيه همومه وتكون له سلوى عما أصابه ولقيه من حكومة بلده، هاهو قد وجد بديلاً عن الوطن ساعة غلّقت في وجهه الأبواب "لقد خسرت بلداً، أو بالأحرى خسرت بلدي، فبحثت عن واحد يقبل التكفل بي... ولكنني فكرت مباشرة بأنني لن أستولي على مكان أحد... فكرت، وحبّ امرأة؟ ألا يمنحك حقوقي؟ ألا يمنحك هذه المكانة التي تبحث عنها؟ قوة الحب"⁴، لقد أنشأ عايد

1 - المصدر نفسه، ص 38.

2 - محمد ديب، سطوح أرسول، ص 65.

3 - المصدر نفسه، ص 36.

4 - المصدر نفسه، ص 17.

لنفسه قانونا يمنحه اللجوء في هذه الأرض الغريبة، ولم يكن هذا القانون إلا الحب، فحبّ روسيا منحه ضوءاً أخضر للمواطنة.

فقد ترك بطل سطوح أرسول خلفه زوجة نرجسية لا همّ لها سوى نفسها وإغداقها على جمالها وعنايتها بمظهرها على حساب الزوج والعائلة" هذه المرأة الجميلة التي ستبقى كذلك لمدة طويلة بلا شك، أنجبت طفلة واحدة... كما لو أن هذا أيضاً تنازلاً منها"¹، حيث لم تقع هذه الزوجة موقع الرضا في نفس زوجها، على خلاف الحبيبة التي وجدها في بلاد الغربة والتي تضجّ روحها بالأنوثة في طبيعتها الأولى وتبتعد عن الزيف "وجه مطهر عارٍ، متحرّر من الانفعالات والمصالح والانشغالات المضجرة، اختصرت تقاسيمه فيما هو جوهري... في جماله الجوهري، على كل حال أنت طيّبة، أدرك ذلك دون أن أعرفك"²، هاهي الحبيبة تسلب لبّ البطل نظراً لما تتمتع له من صفاء روحي وهو ما افتقده في زوجته "عايدة".

يلتقي (عايد) وسط هذا المجتمع بصديق من أهل جرفير، غير أنه لم يجد ما يجمعه مع صديقه (دوديرك) إلا الجانب الإنساني الخالص الذي ربط بين روحهما "لم نتحدث لغة مشتركة في أية لحظة، صديقي دوديرك وأنا... كلما تعارفنا وتخالطنا أكثر كلما أدركت أننا سوف لن نتكلّم لغة مشتركة أبد³، فنقاط الالتقاء والمشاركة ضئيلة ومساحة التقارب شبه منعدمة إلا في شقها الإنساني. لذلك يجد عايد نفسه مديناً بالاعتذار لهذا الصديق الأجنبي في أول هفوة غير مقصودة تفوّه بها" إن الغلطة التي لم تكن ترضيني أبداً هي أن أحزن صديقي، أن أعذبه، أو أجرحه"⁴ حيث يعجب عايد بصديقه دوديرك غير أنه حزن عندما أحسن بإساءته إليه، وهو شعور إنساني نبيل تشترك فيه النفوس السامية عبر المعمورة مهما اختلف عرقها ولغتها وجنسيّتها.

¹ - محمد ديب، سطوح أرسول، ص 26.

² - المصدر نفسه، ص 54.

³ - المصدر نفسه، ص 82.

⁴ - المصدر نفسه، ص 63.

الخاتمة:

- في ختام هذه الورقة البحثية التي جالت في رحاب علاقة الذات بالآخر (الأجنبي) عبر فصول رواية سطوح أرسول، نصل إلى جملة من النتائج لعل أبرزها:
- اكتست علاقة الذات بالآخر أهمية بالغة داخل المتون الروائية بالنظر إلى أن أهل السرد وجدوا فيها مادة خصبة تغذي العمل الأدبي وتغنيه من حيث الصراع وتنوع الموضوعات واختلاف الشخصيات.
 - لا تفهم الذات ذاتها حقيقة إلا بعد ملامستها للآخر بصورة عينية عن قرب، إذ تبقى الصور العدائية للآخر مجرد صور نمطية فرضها التاريخ الإنساني.
 - للآخر فضل على الذات فهو الذي يحدد تمايزها واختلافها. فهما وجهان لعملة واحدة يسعى كل منهما لإثبات نفسه وتعزيز حضورها. فلا وجود للأحادية خاصة في ظل التطور الذي يشهد العالم، فلا مجال للانغلاق الثقافي والحضاري.
 - نصوص محمد ديب الروائية غنية من حيث ثرائها الرمزي ومرجعياتها الثقافية التي تصور الآخر داخل عوالمه وترسم التلاقح الثقافي الحاصل بين الأنا والآخر في الفضاءات الغيرية التي عبرت عنه كتاباته الأخيرة خاصة في ثلاثيته الشمالية وبخاصة سطوح أرسول.
 - رواية سطوح أرسول رواية تعكس علاقة الذات بالآخر في أجمل صورها بعيدا عن الغلو والزعة العنصرية التي مافتتت تسيطر على الثقافات الشرقية في نظرتها للآخر التي لم تخرج عن نظرتين (استعلائية أو دونية) بعيدا عن النظرة الشمولية والإنسانية.
 - وجد بطل "سطوح أرسول" في العالم الغربي عالما يشبع مطامح نفسه التواقة إلى الحرية وبعيدا عن ضجيج السياسة والنزاعات البشرية التي لاتفضي إلى نتيجة.
 - اغتراب البطل عن بلده مكنه من أن ينظر إليه نظرة ناقدة فاحصة تعري الواقع خاصة بعد افتتانه بهذا الأجنبي وعوالمه التي سحرته خاصة في حسن التعامل والسلوكات الاجتماعية لأهل جرفير.
 - على الذات أن تقف موقفا وسطا بين عالمها والعالم الخارجي بعيدا عن الأفكار المسبقة البالية التي تقدّس الأحادية الفكرية والحضارية.

هذه النتائج ليست صياغة نهائية لهذا المقال بقدر ما هي فتح الباب على مصراعيه أمام بحوث أخرى جديدة تعيد قراءة المتون الروائية لمحمد ديب من وجهات نظر ورؤى مختلفة، قد تفتح آفاقا جديدة للبحث.

المراجع:

1. إبراهيم أحمد أبو زيد، (1987)، سيكولوجية الذات والتوافق، ط/1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
2. ابن سيده، (2000)، المحكم والمحيط الأعظم، ط/13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
3. جمال الدين ابن منظور، (2006)، لسان العرب، ط/3، دار صادر، بيروت، لبنان.
4. إسماعيل تامر سفر، (2001)، الذات والهوية في سيكولوجية الشخصية، دإط، وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا.
5. الأمين بحري (2014)، أدب المنفى بين انزياحات الهوية وبدائل الكتابة التفكيكية، جريدة النصر الجزائرية، ع15186.
6. الزبيدي، (1970)، ط|4، تاج العروس، دار الجيل، بيروت، لبنان.
7. الطاهر لبیب، (1999)، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، دإط، مركز دراسات الوحدة العربية، الأردن.
8. آية عبد الله بيك، (2018)، جماليات الذات والآخر في ثلاثية الرفاعي، دإط، كلية الآداب جامعة اليرموك، الأردن.
9. سعد البازغي، (2002)، دليل الناقد الأدب، د/ط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
10. سعد فهد الدويخ، (2009)، صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، ط|1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
11. شرف الدين ماجدولين، (2012)، الفتنة والآخر، ط/1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
12. عباس يوسف الحداد، (2009)، الأنا في الشعر الصوفي ابن الفياض أنموذجا، دإط، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا.
13. علاء عبد الهادي. شعرية الهوية (2001)، عالم الفكر، وزارة الإعلام، السورية، مج12، (ع1)، 2001.
14. محمد ديب، سطوح أرسول، تر: محمد ساري، دار الشهاب، الجزائر، دإط، 2011.

15. مصلح النجار، (2008)، *الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية*، د/ط، المطبعة الأهلية، الأردن،
16. هنري باجو، (1997)، *الأدب المقارن والأدب العام*، د/ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا.

